ثقافتنا بين الوعي واللاوعي

لا يخفى أن العمل الثقافي مسؤولية مشتركة، وعمل تكاملي بين سائر الجهات والأفراد، وكلٌّ يسعى بحسبه ورؤيته إلى غاية عبر وسيلة التثقيف والتعبئة، ومن المهم جدًا أن يلتفت الإنسان إلى مصادر ثقافته ومَعينها، وقد أكّدت الشريعة السمحاء بآيات كريمة وروايات شريفة على ضرورة الاهتمام بذلك، إذ قال تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ} [عبس: ٢٤] ، وفسّرت أكثر الروايات الطعام بالعلم ومصادر الثقافة، فكما أن الطعام مصدر الطاقة الكامنة واللازمة لمختلف الأنشطة التي نقوم بها، كذلك فإن كل ما يصدر من الإنسان إنما يكون نتاج ثقافته ومعرفته.

ولما كانت مصادر الثقافة متنوّعة ومختلفة، لزمنا الاستعداد لمواجهتها، فمنها المسموعة ومنها المرئية ومنها غير ذلك ، وقد تكون بعضها موجَّهة بشكل مباشر، وهذه على الرغم من قوّتها إلّا أنها تكون مفضوحة ومكشوفة، فيقل أثرها ويمكن الحذر منها، بل التغلّب عليها بالاستعداد للمواجهة معها، ومن أفضل طرائق الوقاية منها التوعية الفردية والمجتمعية للوقوف بوجهها والردِّ عليها. أما الثقافة التي قد تكون أكثر أثرًا وفتكًا فهي التي تدخل إلينا عن طريق اللاوعي، ومسألة الثقافة المكتسبة بهذه الطريقة ينبغي الحذر منها، فكما أن التغذية الراجعة من طريق فضائل الأعمال تعمل على بناء الذات ولاسيَّما في الوسط المؤثّر كالأفعال التي نتعلّمها في بيوتنا من دون قصديّة التوجيه؛ بل بأثر اللاوعي كتعلّم الصلاة والصوم والصدقة ممن هم أكبر منا في وسطنا الإيماني، كذلك بعض الأفعال التي قد تكون مقصودة وتصل إلى غاياتها من دون أن نشعر بها، فمثلًا شاشات العرض السيء عبر التلفاز والمواقع المتنوّعة من وسائل التواصل الاجتماعي أو الصحف الموبوءة التي تحاول مرة أن تسخر بالمقدّسات وأخرى بالرموز؛ لأنها عاجزة عن محاربة العلن فتلجأ إلى

وسائل السخرية والتهكّم؛ لأنها من طريق اللاوعي قد تعمل على توجيه النفوس وميلها.

ومن الجدير بالذكر أن قوى الشرِّ تعمل بصمت وتتقصّد الإساءة إلى الثوابت؛ لتعمل على زعزعة الثقة أو التشكيك بها أو محاولة ذلك، وفي المقابل تنتشر عشرات؛ بل مئات المنظمات التي تتزيّن بعناوين برّاقة تنادي بحقوق الإنسان مرة وبالحرية والمساواة مرة أخرى، وتستغل الطاقات الشبابية بالانضمام إليها ثمّ تعمل على ممارسة التثقيف المقصود بالتوعية المستمرّة والموجّهة بشكل ظاهر أو عن طريق اللاوعي حتى أيقن أكثر المنضمّين إليها أن هناك صورة ناصعة للحرية والمساواة عند الغرب. فغدا كثير من أبنائنا يقلّدهم وينادي بصوتهم، بل أصبح بعض منهم بوقًا لإعلامهم المضلِّ خاصة في ظل هذه القدرات الضعيفة والخجولة التي تظهرها المؤسّسات الرقابية الحكومية والتي قد تكون هي الأخرى قد تم غزوها في عقر دارها.

إن المسؤولية الشرعية والوطنية تفرض علينا دوام المراقبة ومصاحبة الأبناء ومعرفة توجّهاتهم ومصادر معلوماتهم وثقافتهم والتقرُّب منهم ومحاولة توجيههم بما يخدم الواقع الإسلامي الصحيح ومصلحة الوطن، وينبغي أن نثقّف أبناءنا؛ لتكون لهم القدرة على التمييز بين الأعداء وبين الأصدقاء، وبين محور المقاومة ومحور الشرّ القابع على مقدّرات الدول المغلوبة على أمرها، وتحاول النيل من سيادتها، واستغلال أبنائها وثرواتها.

أما عن طبيعة التصدّي لهذه المسؤولية فهي ليست متعسّرة كما يظن بعضنا، فيتهرّب منها ويترك حبلها على غاربه، فتكون النتائج وخيمة ومشينة، وتخرج بنتائج كارثية على مستوى الضياع والتميّع، والتجاهر بالفسق والفجور، وضياع الحقوق والتعدّي على حدود الله ورسوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والأئمة المعصومين (عليهم السلام)، والمقدّسات والرموز؛ لتسمع بعضهم ينهق بصوته ويعترض على المدافعين عن الرموز بحجّة تركهم محاربة الفاسدين أو السّراق للمال العام، ليجعل من ذلك قياسًا باطلًا ومضلًا. نعم إن من الضروري محاربة الفاسد بغض النظر عن جنسه وهويّته ومعتقده وقوميّته. ولكن من السخرية أن نقارن بين ذلك وبين ترك الدفاع عن المقدّسات والرموز، ولهذا فالحذر الحذر من التغذية الثقافية ومصادرها، وعلى الجميع أن يُدرك خطورة الوضع والظرف، ويكون العمل بشكل تكاملي وعلى المستوى المؤسّساتي والمجتمعي والفردي من أجل بلوغ غاية الإصلاح، ودرء الفتن، ومحاربة الشرّ والانتصار عليه.